الدور الثقافي والاجتماعي والجهادي للزوايا في الجزائر فترة الاستعمار الفرنسي.

الملخص:

يعتبر موضوع الزوايا مكونا من المكونات الرئيسة في المجتمع الجزائري. فدراسة الوظائف الدينية والاجتماعية والسياسية لمؤسسة الزاوية يكتسي أهمية كبيرة كونه يساهم في تصحيح جملة من التمثلات الانطباعية مفادها أن الزاوية ما هي إلا مكان للشعوذة والرهبانية والاحتيال على الناس.

فموضوع وظيفة الزوايا وقيمته العلمية تتأكدان أكثر بالنظر إلى راهنية بعض الأسئلة التي طرحت ولا تزال تطرح اليوم، ففي الوقت الذي لم تكن فيه أية مؤسسة تهتم باحتياجات المجتمع الدينية والاجتماعية والسياسية في غياب الدولة، كانت الزاوية بمثابة المتنفس الوحيد. من هنا جاء هذا الموضوع لإبراز أهم الوظائف الثقافية والاجتماعية والجهادية لمؤسسة الزاوية فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

الكلمات المفتاحية: الدور الثقافي والاجتماعي والجهادي، الزوايا، الاستعمار الفرنسي.

Abstract

The issue of quicksilver's (Zawiyas) is one of the main components of Algerian society. The study of the religious, social and political functions of the Zawiyas foundation is of great importance. It corrects series of impression that the quicksilver's are only a place of sorcery, monasticism and deceive. The issue of the quicksilvers' function and their the scientific value is further confirmed by some of questions that have been and are still being asked today. Hence this subject to highlight the most important cultural, social and jihadist functions of the quicksilver's (Zawiyas) foundation during the French colonization of Algeria.

Keywords: cultural, social and jihadist role, quicksilver's (Zawiyas), French colonialism

1. وظائف الزاوية في الجزائر:

أخذت الزاوية أهميتها من تعدد وتنوع وظائفها المختلفة ذات الأبعاد الوطنية، فالدور الذي أخذته على عاتقها في مختلف الميادين جعلها محط اهتمام من قبل المستعمر الذي حاول في كثير من الأحيان شل حركتها، كونها ساهمت في التصدي للتيار الاستعماري وشاركت في مسيرة النهضة الوطنية التي كان من دعائمها الطلبة والعلماء والفقهاء، فالأمير عبد القادر بن محي الدين خريج زاوية فقائد مقاومة شعبية أرهبت الاحتلال، وغيره كثير (لالة فاطمة نسومر، الشيخ بوعمامة(*)، الشيخ بومعزة، بومزراق، أحمد باي ...)، لقد استطاعت الزوايا أن تقف كعقبة أمام الاستعمار وسياساته الممثلة في تنصير المجتمع الجزائري وتجنيسه وفرنسته، ولعل أهم دور قامت به يتمثل في المحافظة على القرآن الكريم وتحفيظه كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا[1].

لقد استطاعت الزوايا أن تحافظ على الشخصية الوطنية طوال الفترة الاستعمارية، ويظهر الأثر الإيجابي للزوايا في المعركة الحضارية التي خاضتها ضد الاحتلال الفرنسي، وبالرغم مما تعرضت له الزوايا في الجزائر من تدمير وتخريب ومصادرة إلا أنها أخذت على عاتقها مهمة التوجيه والإعداد لانتفاضات وثورات ناهيك عن دورها العلمي والديني[2].

وقد أشارت الدراسات الكولونيالة التي تمت في مرحلة الاحتلال إلى الوجود المتميز لحركة الزوايا وتركيبتها، وأشادت بوظائفها المتنوعة، كالنقيب "Neveu" الذي أجرى دراسة هامة سنة 1945م حول الاتجاهات الدينية وتنظيماتها.

حيث كشف عن تعددية وتشعب وظائف الزوايا في الجزائر، ويصفها بكونها مؤسسة ليس لها مثيل في الأوساط الغربية، "فهي عبارة عن مصلى، وفي نفس الوقت تابعة للعائلة التي قامت بتأسيسها، حيث يأتي المريدون المرتبطون بالعائلة للزيارة في أوقات مخصصة، وهي أيضا مسجد يجتمع فيه مسلمو القبائل المجاورة لأداء الصلاة جماعيا، كما أنها مدرسة تدرس مختلف العلوم القرآنية، الكتابة، الحساب، الجغرافيا، التاريخ، الكيمياء، السحر،

(*) من أبرز قادة المقاومات الشعبية في الجزائر، دامت مقاومته قرابة الربع قرن (1881م، 1908م) وهي السنة التي توفي فيها.(أنظر عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة (1881م، 1808م)، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، (د.ط)، 1981، ص 07.

[1]–نجيب بن خيرة: أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2010، ص 36–37.

[2]–محمد العربي حرز الله: منطقة الزاب مائة عام من المقاومة (1830–1930)، دار السبيل، (د.ط)، 2009، ص339.

الفلسفة، والتوحيد للأطفال طول السنة وللطلبة في مواسم معينة، والعلماء في أوقات خاصة فهم يجتمعون لأجل تعلم ما يجهلونه أو لإثارة ما يجهلونه أو لإثارة نقاشات حول مسائل قانونية فقهية، تاريخية، وعقائدية"[1].

من هنا فإن الزاوية عبارة عن مؤسسة متعددة الاختصاصات، حيث تمكنت من أن تكون بديلا يملأ الفراغ الذي أحدثه المستعمر من خلال الوظائف المتعددة التي أصبحت منوطة بها، فاستطاعت بذلك أن تحافظ على البنية الاجتماعية للجزائريين في وقت لم تكن فيه أي مؤسسة أخرى يمكن لها أن تقوم بهذا الدور، فهي المسجد والمدرسة والمنزل والمكان الذي يمكن للفرد أن يجد فيه راحته دون مقابل.

ويمكن أن نبرز هنا بعضا من الوظائف التي استطاعت الزاوية أن تقدم فيها خدماتها للمجتمع، كما يتبين ذلك في مختلف الوظائف التي سنتطرق إليها.

1. 1 . الوظيفة الثقافية:

اتسمت سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر بالاضطراب والفوضى، بالرغم من إجماع معظم المسؤولين الفرنسيين على محاربة الثقافة تطبيقا لسياسة الإدماج، فمنهم من كان يدعوا إلى نشر اللغة الفرنسية وتنمية تعليمها أملا في فرنسة الشعب الجزائري، ومنهم من كان ينادي بحرمان الجزائريين من كل تعليم سواء كان عربيا أم فرنسيا بمعنى تجهيل الجزائريين، وكان من أشد المتعصبين لمبدأ تجهيل الجزائريين الأوربيون القاطنون في الجزائر، وبمرور الوقت نتج عن هذه السياسة التعليمية نتيجتان متباينتان: الأولى في كونها نجحت أو كادت أن تنجح في مقاومتها للغة العربية والثانية في كونها فشلت أو كادت أن تفشل في فرنسة الشعب الجزائري عن طريق التعليم في المدارس الفرنسية، فلا فرنسا تركت المجال للجزائريين لتعلم لغتهم ولا هي علمتهم لغتها[2].

وقد جاء في تقرير عن التعليم العمومي في الجزائر سنة 1846م ما يلي: "ففي الجزائر العاصمة اختفى العديد من المساجد وهدمت خمس زوايا، وصودرت عائدات المساجد والزوايا، ولم يعد الأساتذة يتلقون سوى مرتب ضعيف، ولم تبق دروسهم منتظمة إلا

---

[1]–غرس الله عبد الحفيظ، الزاوية فضاء للتنشئة الاجتماعية مقاربة سوسيولوجية، **مجلة المواقف**، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، العدد الأول، ديسمبر 2007، ص22.

[2]–حميد بن سالم: الثقافة الإسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال، **مجلة اللسان العربي**، العدد الأول، الرباط، 1964، ص35.

قليلا، ونفس الوضع شمل المدن الداخلية". ولم يختلف الوضع كثيرا عما هو عليه سنة 1864م حيث جاء في تقرير آخر موجه إلى نابليون الثالث كتبه الجنرال ديكرو "Ducrot":" يجب علينا أن نضع العراقيل أمام المدارس الإسلامية والزوايا كلما استطعنا إلى ذلك سبيل... وبعبارة أخرى يجب أن يكون هدفنا هو تحطيم الشعب الجزائري ماديا ومعنويا"[1].

من هنا فإن التعليم في الزوايا قد حورب وحوصر بالمدرسة الفرنسية على ثلاثة مراحل، ففي الأولى حاول الفرنسيون جر الجزائريين إلى إدخال أبنائهم في المدارس الفرنسية، وفي المرحلة الثانية أنشئوا ثلاث مدارس إقليمية ويطلق عليها بالمدارس الشرعية الثلاث، في محاولة امتصاص التلاميذ الذين يتوجهون إلى الزوايا الريفية وإلى المرابطين للتعلم أو يقصدون المعاهد الإسلامية خارج الجزائر، أما في المرحلة الثالثة فقد قام الفرنسيون بإنشاء المدرسة الفرنسية بجانب الزوايا[2].

وبالمقابل فإن الزوايا في الجزائر قد أخذت على عاتقها مهمة تعليم الجزائريين وتثقيفهم، في محاولة منها للتصدي لمختلف هذه السياسات، وقد كانت مؤسساتها التعليمية مقسمة إلى قسمين:

القسم الأول: يقوم بوظيفة تعليم القرآن الكريم وتحفيظه للصغار، وتضم كتاتيبه الذين سبق لهم أن تعلموا الحروف الهجائية واستظهروا بعض السور من القرآن الكريم.

القسم الثاني: وهذا القسم لا يستقبل إلا حفاظ القرآن الكريم، ويدرس فيه الفقه والعقائد وقواعد النحو والصرف والبلاغة والمنطق وبعض المبادئ في علم الفلك[3].

وبهذا كانت الزوايا الملجأ الوحيد لتعليم الأهالي في الجزائر، حيث كتب ليون بيكي أحد أعضاء لجنة مجلس الشيوخ الفرنسي التي جاءت للاطلاع على أحوال الجزائريين سنة 1891م قائلا: "إن التعليم في الجزائر الآن (1891م) قام تحت إشراف الأهالي أنفسهم والزوايا، حيث يتعلم فيها التلاميذ القرآن وتفسيره، وهي المؤسسة التعليمية الوحيدة في المستعمرة"[4].

---

[1]–عبد المنعم القاسمي الحسني: زاوية الهامل مسيرة قرن من العطاء والجهاد 1862–1962، ط2، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر،2013، ص184.

[2] –أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1830–1954، ج3، دار البصائر، الجزائر، ص172.

[3]–عبد الكريم بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931–1945، عالم المعرفة، الجزائر، 2008، ص170.

[4]–عبد المنعم القاسمي الحسني: المرجع السابق، ص184.

من جهة أخرى فقد كانت بعض الزوايا تعج بالمكتبات التي تحتوي على كتب المشارقة والأندلسيين بالإضافة إلى المؤلفات المحلية التي ألفها أصحاب الزوايا ومشايخ الطرق الصوفية، ومن هنا كانت الزاوية مركز إشعاع ثقافي وعلمي كما كان لها دور فعال في الجانب الاجتماعي والسياسي في المجتمع الجزائري حيث كثيرا ما كانت تستعمل إلى كونها مراكز لنشاط ديني مدارس وملاجئ وبيوتا لعمل الخير[1].

ومن أمثلة ذلك مكتبة زاوية علي بن عمر بطولقة والتي أسسها الشيخ علي بن عثمان (1842-1896م) وتظم المكتبة عددا كبيرا من المخطوطات في شتى العلوم[2]. ولا تزال المكتبة فاتحة أبوابها إلى يومنا هذا[3].

وباندلاع الثورة التحريرية سنة 1954م، بدأ النشاط التعليمي للزوايا يقل نوعا ما، بسبب انخراط الطلبة والعلماء في صفوف الثورة وكان منهم قادة وجنود تركوا القلم ورفعوا السلاح.

1. 2 .الوظيفة الاجتماعية:

اتجهت السياسة الفرنسية إلى إحداث تغيير في البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الجزائري، قصد تدمير روح المقاومة التي يتمتع بها وهذا لا يتم حسب منظور هذه السلطات دون القضاء على كل ما له علاقة مباشرة بمعتقدات الأهالي وأنظمتهم الحضارية التي توارثوها وبهذه الطريقة تستكمل عملية الهدم والتدمير لجميع مقومات المجتمع الجزائري، فيستسلم للأمر الواقع الذي تفرضه سلطات الاحتلال مما يسهل عملية تدجينه.

وقد بنيت سياسة الاحتلال الفرنسي في المجال الاجتماعي على سلسلة من الإجراءات المتعاقبة تتمثل في إيجاد مجتمع جزائري منسجم مع الغايات التي ينشدها المحتل، بحيث يكون منفصلا عن أصوله الثقافية والدينية والاجتماعية مندمجا في المجتمع الفرنسي دون أن يرقى في نظر المستعمر إلى نظام الحكم والتسوية بينهما، وفي ظل غياب سلطة فعلية تقوم بتسيير المجتمع كانت الزوايا هي الملاذ الوحيد للكثير من الفئات الاجتماعية.

---

[1]– روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين: ترجمة نيكولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1963، ص137.

[2]–أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954م، ج3، المرجع السابق، ص215.

[3]–زيارة قام بها الباحث إلى مكتبة الزاوية بتاريخ: 2014/12/25.

من هنا فقد برزت مكانة الزاوية كمؤسسة اجتماعية قدمت للمجتمع خدمات جليلة، من علم وتربية وإيواء وتأهيل مهني واجتماعي ورعاية نفسية فقد كانت مفتوحة لكل فئات المجتمع دون استثناء، وملاذا آمنا في أوقات الكوارث والأزمات الاجتماعية، فالحروب التي حدثت في الجزائر طوال فترة الاحتلال أدت إلى تشريد العائلات وتدمير ملكيتهم الفردية، وزيادة عدد الأيتام، فوجد هؤلاء في الزاوية الملجأ الوحيد لمعاناتهم.

فكثيرا ما تقترن وظيفة الزاوية اجتماعيا بالإطعام حتى اعتبر رمزا للبركة التي تنزع ممن رفض تناوله، كما اعتبر وسيلة لنيل شفاعة الولي، ولا شك في مال هذه الوظيفة من أهمية بالغة في مجتمعات كثيرا ما كانت تعاني من نقص في الإنتاج في فترات الجدب والقحط وفي أوقات الأوبئة وسنوات المجاعة[1].فالزاوية توفر حدا من الأمن الغذائي مقابل خدمات والتزامات يتعهد بها هؤلاء للزاوية كالحرث والزرع.

وقد عبر الباحث الفرنسي جاك بيرك(*) عن الوظائف التي تقوم بها زاوية الهامل محل دراستنا في رسالة إلى الشيخ "مصطفى قاسمي الحسني"(**) وذلك في قوله: "إن تاريخ زاوية الهامل يهم تاريخ المغرب بأسره، من حيث المجهود الذي بذلته زمن الاستعمار وذلك باستنهاض القيم الروحية والاجتماعية التي تقوم مقام ملجأ للناس"[2].

وقد ثبت عن بعض الزوايا ومنها زوايا الطريقة الرحمانية كزاوية الهامل وزاوية الشيخ بلعموري والزاوية العثمانية بطولقة أن القائمين عليها كانوا يتنقلون إلى أماكن النزاعات لحلها وفي معظم الحالات كانت الخلافات تحل في الزاوية نفسها، وخصوصا ما تعلق بالمشاكل العائلية كالإصلاح بين الأزواج، وفي كثير من الأحيان كانت عقود الزواج تقام داخل الزاوية وتتكفل الزاوية بنفقات الزواج وهي بهذا عبارة عن ركيزة أساسية في المجتمع[3].

---

[1]–محمد بن الطيب، إسلام المتصوفة، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2007، ص 169.

(*) جاك بيرك: مستشرق فرنسي، تبنى الدفاع عن القضايا العربية، توفي سنة1995.

(**) الشيخ مصطفى بن محمد بن الحاج محمد بن أبي القاسم الشريف الحسني (1897–1970)، شرع بالتدريس في الزاوية سنة 1916م وذلك في ولاية عمه الشيخ أبي القاسم، وفي سنة 1928م، تولى مشيخة الزاوية بعد وفاة عمه الشيخ أحمد، له مساهمات فعالة في دعم الثورة التحريرية.(أنظر عواطف قاسمي الحسني: نفحات هاملية، بين الرواية والحقيقة، وبين الحقيقة والوثيقة، دار الخليل القاسمي، 2014، ص 93)

[2]–رسالة جاك بيرك إلى الشيخ مصطفى قاسمي الحسني، شيخ زاوية الهامل، بتاريخ 17 سبتمبر 1965، من وثائق المكتبة القاسمية.

[3]–بثينة سلطاني الحمراوي: البعد الإصلاحي في التراث الصوفي، **مجلة الحياة الثقافية**، منشورات وزارة الثقافة، تونس، العدد 239، 2013، ص11.

وتقام في الزاوية مجموعة من الأعياد والاحتفالات الدورية التي كانت تساهم في تكوين علاقات اجتماعية متينة جدا، وتمكن من تخطي تلك الحواجز الاجتماعية وحتى السياسية، فتتوثق بذلك العلاقات العائلية وتتبادل الأخبار الودية، وتبرم العهود والعقود والصفقات، وبهذا يحدث الحراك الاجتماعي المحلي[1]. وهذا ما وقفنا عليه من خلال زيارتنا لزاوية الهامل بمناسبة المولد النبوي الشريف. كما تحيي الزاوية الاحتفالات الخاصة بموسم الحج وتسهر على توفير المال لبعض الحجاج، وقد تكلف أحد شيوخها لمرافقة الحجاج إلى البقاع المقدسة.ويبرز أحد التقارير الفرنسية هذه الاحتفالات:"في مختلف المناسبات والأعياد الدينية، تأتي أيضا أعداد كبيرة من الزوار المريدين من بعيد لحضور الاحتفالات بعيد الفطر وعيد الأضحى، عاشوراء، والمولد النبوي الذي يتميز عن غيره من المناسبات حيث توزع فيه الصدقات والأموال على الفقراء"[2].

وقد تخصصت بعض الزوايا في استقبال نوع معين من الضيوف قبل فترة الاحتلال، وذلك بنصوص أوقافها، فزاوية مولاي حسن بالعاصمة كانت عبارة عن دار سكن للعزاب، وزاوية سيدي أبي عتيقة تستقبل الفقراء والمرضى والعجزة، وزاوية سعيد قدورة مخصصة لاستقبال فقراء العلماء، ومن جهة أخرى كانت بعض الزوايا مقصودة أكثر من غيرها إما طلبا للبركة أو للعلاج وطلب الاستجابة للدعاء[3].

ومن أهم ما كان يميز الزوايا كونها ملجأ للهاربين من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم، كون العامة يعتقدون الحصانة في حمى الزاوية، وقد وقعت حوادث الفرار إلى زاوية الولي داده وزاوية القليعة والثعالبي[4]. وهذا ما يثبت المكانة الاجتماعية التي كانت تحتلها الزوايا في قلوب الناس.

وما يمكن أن نخلص به من خلال ذكرنا لبعض الوظائف الاجتماعية للزاوية، يكمن في كون الزاوية استطاعت أن تخفف من معاناة الشعب الجزائري وذلك من خلال التكفل بالفقراء واليتامى والمساكين، كما أنها حافظت على تماسك ووحدة المجتمع الجزائري، وتمكنت من خلال نشاطها من تنظيم العلاقات بين مختلف شرائح المجتمع فكانت تستقبل

---

[1]–محمد بن الطيب: المرجع السابق، ص169

[2]–مبارك الميلي: تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص87.

[3]–أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500–1830م، ج1، المرجع السابق، ص270.

[4]–المرجع نفسه: ص271.

الأموال من الأغنياء وتصرفها على الفقراء، ومثلت قلعة حصينة في وجه المشاريع الاندماجية التي سعى المستعمر الفرنسي إلى تحقيقها.

1. 3 .الوظيفة التحررية:

لقد أنشأت الرباطات بداية كأماكن معدة لمقاومة المحتلين والغزاة، ثم تحولت فيما بعد إلى زوايا، لكن هذا التحول لم يفقدها الغاية التي أنشئت من أجلها، فقد كانت الزوايا حصنا منيعا ضد الحملات الإسبانية والبرتغالية التي طالت السواحل الجزائرية خلال القرنين 15 و16، وقد تواصل دعم الزوايا للمقاومة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، فأغلب الثورات والانتفاضات التي اندلعت في الجزائر كان للزوايا يد فيها.

وقد أدى النشاط المتزايد للزوايا إلى تفطن خبراء الاحتلال لدور الزوايا في المقاومة الوطنية مدركين بذلك أهمية الشبكة الطرقية في تأجيج الانتفاضات والثورات، حيث كلفت "اللجنة العلمية حول المقاومة الجزائرية" أحد أعضائها الممثل في النقيب دو نوفو (Deneuveu) بدراسة التنظيم الخاص بالزوايا والطرقية وقد نشر نتائج بحثه سنة 1845م، ومن أهم النتائج التي توصل إليها أن الزوايا في رأيه هي مراكز للتآمر وإشعال فتيل التمرد وهي بذلك تعادي الوجود الفرنسي وتحظى بكثير من الاحترام بين الأهالي.[1] والواضح أن نتائج هذا التقرير قد تشابهت إلى حد بعيد مع نتائج تقارير أخرى أوكلت لأشخاص آخرين.

ولا شك أن السرية التي كانت تحيط بالزوايا والنشاط الذي كان يقوم به شيوخها لم يمكن الاستعمار بما لديه من إمكانيات ووسائل للاطلاع عليها، وهذا ما جعله يقوم بتكليف ضباط يسهرون على مراقبة الزوايا ونشاطها خصوصا في المناسبات التي كانت تنعقد فيها الاجتماعات كالحج مثلا، وهذا ما صرح به "ماكماهون" سنة 1851م بقوله: "يجب على الإنسان أن يقضي حياته كلها في الزاوية حتى يعرف ما يجري فيها وما يقال فيها"[2].

ففي فترة ما بين الحربين قام باحثون مدنيون من المختصين في علوم التاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا بملاحظة ميدانية لتنظيم الزوايا ومكانتها الشعبية ومصادر تمويلها ومدى نفوذها المعنوي نذكر منهم جاك بيرك والسيدة إيفون توران وكل من لوكا وفاتان

---

[1]–محمد العربي ولد خليفة: الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص 236–237.

[2]–صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية في الجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002، ص53.

والسيدة كولونا، وبعد الحرب العالمية الثانية تواصل الاهتمام المتزايد بمراقبة الزوايا وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن نشاطها الداخلي وعلاقاتها بمحيطها المباشر[1].

والملاحظ هنا أن هذا الاهتمام المتزايد لمؤسسة الزاوية يبرز أن الاحتلال الفرنسي قد أدرك الخطورة التي قد تشكلها على تواجده، والدعم الروحي والمادي الذي يقدمه شيوخ الزوايا للمقاومات الشعبية كما ذكرنا ذلك سابقا.كما أننا بهذا الصدد لا نقلل من قيمة هذه الدراسات التي تحمل قيمة علمية كبيرة بالرغم من بعض الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء الكتاب سواء عن قصد أو دون قصد.

فيذهب "مارسيل سيميان" "Marcel Simian" إلى أن "المؤسسات الدينية غالبا ما تتحول إلى معقل للثورة ضد الأجنبي وضد الرومي المدنس لأرض الإسلام" فالزاوية على حد تعبيره "لم تعد فقط مكانا لتعليم القرآن الكريم...، بل أصبحت منبعا للجهاد ترسم في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات والثورات"، أما "شارل بلوسرال" "CH.Brosselard" فوصف إتباع الطرق الصوفية "بالميليشيات المسلحة للدفاع ونشر العقيدة ...، مستعدة للانطلاق بمجرد أول إشارة من قائدها"[2].

وفي تقرير مرسل من الحاكم العام الفرنسي في الجزائر "شارون" إلى وزير الدفاع بتاريخ 22 ديسمبر 1849م، ويقع هذا التقرير في 39 صفحة ومما جاء فيه: "... إن الذي حدث يبرهن بوضوح أننا لا يمكن أن نحصل على هدوء تام في هذه البلاد بوجود شعب متعصب سهل التحريض، هذا الشعب العربي يجب علينا في كل لحظة أن نتوقع ظهور أحداث جديدة، وأن نكون على استعداد دائم لقمعها... وإن الزوايا هي المعمل الحقيقي للتعصب، وهي السبب وراء كل القلائل"[3].

وقد كانت أول مظاهر تحرك الطرق الصوفية والزوايا والمرابطين لمقاومة الاحتلال بعد دعوة سابقة من ابن العنابي، وقد تلى ذلك اجتماع برج البحري سنة 1831م ومتيجة وسوق علي سنة 1832م وبوخرشوفة سنة 1833م بمتيجة تحت لواء الشيخ ابن زعموم والشيخ السعدي والشيخ ابن المبارك. كما قام الشيخ محي الدين ابن الشيخ مصطفى

---

[1]–محمد العربي ولد خليفة، المرجع السابق، ص237

[2]– محمد مجاود: دور الزوايا في الحركة الوطنية والثورة التحريرية، **مجلة المواقف**، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، عدد خاص، أفريل 2008، ص315–316.

[3]–عبد الرحمان مصطفاوي: "دور الزوايا والطرق الصوفية في المقاومة الشعبية للاحتلال"، **مجلة رسالة المسجد**، السنة السادسة، العدد 08، (أوت 2008م)، ص68.

الغريسي مقدم الزاوية القادرية بالقيطنة نواحي معسكر بتاريخ 17 أفريل 1832م بشن هجوم على دورية فرنسية بضواحي وهران، وكان جيشه مكونا من مريدي وأتباع الزاوية، كما أعلنت مجموعة من الطرق الصوفية مقاومتها كالقادرية والرحمانية والطيبية وغيرها وهو ما أطلق عليه الاستعمار بـ "انتفاضة الطرق الصوفية".

وتعتبر مقاومة الأمير عبد القادر من أعنف المقاومات ضد المستعمر(1832م 1847م)، وبالرغم من انتماء الأمير إلى الطريقة القادرية إلا أنه حاول أن يكون وطنيا حيث استطاع توحيد الصفوف. وفي هذا الصدد يقول أغستين بيرك "Augustin Berque": "... إن الأمير عبد القادر ما كان ليستطيع ضم الناس إلى صفه لو لم يكن مقدم إحدى الزوايا، وكان الاحتلال على علم بالدور الفاعل للزوايا في انتفاضات الشيخ بوبغلة والشيخ سي صادق بن الحاج والشيخ الحداد والمقراني"[1].

وقد توالت المقاومات الشعبية التي كانت بقيادة شيوخ الزوايا ففي سنة 1854 أعلن الشيخ بوبغلة تمرده بمنطقة القبائل حتى اعتبر في نظر بعض المؤرخين "رمزا للمقاومة الوطنية" وبعد إخماد مقاومته تولت قيادة المقاومة "لالا فاطمة نسومر" في الفترة الممتدة ما بين (1851-1857) فكانت بذلك منطقة القبائل بأكملها في حالة ثورة وذلك بفضل جهود الطريقة الرحمانية إلا أن هذه الثورة قمعت من قبل الاحتلال الذي أحس بقوتها وخطورتها، فقام الحاكم العام الفرنسي للجزائر الجنرال "راندون" بقيادة حملة تتكون من ثلاثين ألف رجل تم على إثرها أسر فاطمة وقمع الثورة[2].

كما يمكننا هنا أن نبرز بعضا من الأعمال والوظائف التي قام بها مقدموا الطريقة الرحمانية بمنطقة القبائل نذكر من بينهم:

- **الشيخ صديق وأعراب:** والذي يمتلك زاوية في منطقة تيزي راشد بالقبائل، كان شديد البغض للفرنسيين، حيث تزعم قبيلة ناث إراثن في معركة 28 ماي 1837م بمنطقة يسر، كما قام بتحريض السكان وحثهم على العصيان وسط السوق يوم 30 جانفي 1855م، إلى أن تم إخضاعه من قبل الباشاغا محمد أوقاسي يوم 09 فيفري 1855م[3].

[1]-Augustin Berqu:easaid une bibliographie critique de la société de Géographie et d'Archéologie de la province d'Oran, tom XXXIX, P137.

[2]-أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، دار البصائر، الجزائر،2007، ص53.

[3]-عبد الرحمان مصطفاوي: المرجع السابق، ص68.

- **الحاج أعمر:** قيم زاوية الشيخ محمد عبد الرحمان بآث إسماعيل وزوج فاطمة إحدى بنات الشيخ علي بن عيسى الخليفة الأول لمؤسس الزاوية، كان من ابرز الذين وقفوا في وجه السي الجودي الذي كان متعاونا مع فرنسا بعد تحوله من صف المقاومة إلى ضدها، حيث قام بالتحضير إلى مقاومة شاملة ناحية ذراع الميزان، وهذا ما أبرزه التقرير الذي وجهه "دونوفو" DENEVEU" من تيزي نثلاثة بذراع الميزان بتاريخ 24 أوت 1856م أشار فيه أن الحاج أعمر قد تمكن من جمع مختلف القبائل بالمنطقة بما فيها القبائل الخاضعة لفرنسا وزحف بها على البرج الذي كان فيه الجودي بالواضية تم على إثره قتل القائد سليمان بن كفيف أحد المتعاونين مع فرنسا[1].
- **الشيخ الحداد والمقراني1871م:** لقد كان للطريقة الرحمانية دور كبير في إشعال فتيل ثورة 1871م بقيادة الشيخ الحداد ، إلا أن أغلب الدراسات التاريخية تنسب هذه الثورة إلى الشيخ "محمد المقراني" وتهمل الشيخ الحداد، علما أن هذه الثورة تعتبر الوحيدة من بين كل الثورات التي اندلعت في الجزائر بامتلاكها لقائدين، فكان القصد الفرنسي من تسمية هذه الثورة بثوة المقراني الانتقاص من مكانة المقراني وتحميله تبعات هذه الثورة، جاعلين منه زعيما يريد استرجاع نفوذه ومكانته الضائعة، لا لكونها ثورة شعبية ووطنية[2].

وهذه الادعاءات ليست بالغريبة كونها تدخل في إطار الحرب النفسية التي يستعملها المستعمر بهدف افشال الثورات التي تندلع في كل مرة في كامل ربوع الجزائر.

فنجد "لويس رين" مثلا يعتبر أن"ثورة 1871م مجرد هيجان سياسي لبعض الوجهاء والأعيان الجزائريين المستائين، وتذمر ساعدت الصدف على ميلاده وبروزه لأكبر رئيس طائفة دينية في الجزائر الممثل في الشيخ الحداد، وان مختلف شيوخ ووجهاء الدين بـ "مجانة وصدوق" لم يدخلوا هذه الثورة إلا من أجل المحافظة على امتيازاتهم الخاصة على حساب الطبقات الفقيرة"[3].

---

[1]– عبد الرحمان مصطفاوي: المرجع السابق، ص69.

[2]–الصادق دهاش: الظروف التاريخية العامة المحيطة باندلاع ثورة المقراني 1871–1872م، أعمال ملتقى الشيخ الحداد والمقراني، المنعقد يومي 11–12 ديسمبر 2004، برج بوعريريج، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2006م، ص14.

[3]–يحي بوعزيز: دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871م، أعمال ملتقى الشيخ الحداد والمقراني، المنعقد يومي 11–12 ديسمبر 2004، برج بوعريريج، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2006م، ص65.

والملاحظ هنا أن "لويس رين" ركز على شخصيتي المقراني والحداد وتناسى الأعداد الكبيرة من أبناء الشعب الجزائري الذين التفوا حول الثورة، ولم تكن لهؤلاء حينها امتيازات حتى يثوروا من أجلها، بل كانت مختلف السياسات الفرنسية المطبقة على الشعب عاملا أساسيا في تأجيج هذه الثورات، كسياسة الإلحاق في دستور نوفمبر 1848م والذي نتج عنها تزايد حركة الهجرة الأوربية نحو الجزائر، وما ترتب عنها أيضا من عمليات نقل الملكية ومصادرة الأراضي، فكانت هذه التفسيرات تهدف أساسا إلى إفراغ ثورة 1871م من محتواها الوطني.

وقد ساهمت مجموعة من الظروف الداخلية والخارجية في قيام ثورة المقراني والحداد، فعلى المستوى الداخلي أدى حدوث الكوارث الطبيعية والأمراض والمجاعة التي لحقت بالجزائريين والتنصير المسيحي المنتشر بالمنطقة إلى إشعال فتيل الثورة، أما على المستوى الخارجي فقد كانت النكبات التي تعرضت لها فرنسا بأوربا وحربها ضد بروسيا عام 1870م مشجعة على قيام هذه الثورة أيضا. والتي كان من نتائجها إلغاء النظام الإمبراطوري وإعلان النظام الجمهوري.

كل هذه الظروف حفزت الشيخ محمد المقراني على توسيع نطاق ثورته التي انطلقت في مجانة، فقام بإرسال وفد إلى قرية "صدوق" بتاريخ 06 أفريل 1871م، يدعوا فيه الشيخ محمد الحداد إلى الثورة، وهذا ما حدث بالفعل، حيث كلف الشيخ الحداد ابنيه "عزيز ومحمد" بدعوة كل المقدمين المجاورين لصدوق للتشاور معهم في الأمر، وبعد يومين فقط وبتاريخ 08 أفريل 1871م احتشد الناس وأعلن لهم خلافة ابنيه له من بعده بحكم كبر سنه، وصاح قائلا: "بإذن الله وعون رسوله سنرمي الافرنسيس في البحر، ونطردهم من البلاد"[1]

فكانت هذه الدعوة الموجهة من قبل الشيخ الحداد إلى المريدين ومقدمي الزوايا في المنطقة، كافية لحشد الكثير من الناس إليها، كما أن الوضع المتردي كان سانحا لذلك، ولا شك أن دعوة الشيخ الحداد كانت تحمل طابعا قدسيا كونها صدرت من أكبر شيوخ الطريقة الرحمانية في المنطقة.

وقد شملت هذه الثورة مناطق واسعة من الجزائر، من شرشال غرب مدينة الجزائر إلى القل وعنابة وسوق أهراس شرقا، ومن ناحية البحر شمالا إلى أعماق الصحراء جنوبا، وقد قدر الفرنسيون أعداد الجزائريين الذين انظموا لثورة 1871م بمائتي ألف محارب ينتمون إلى

[1]–بسام العسلي: محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية، دار النفائس، ط1، بيروت، 1981م، ص146–147.

ما يقرب من مليون ساكن، وهذه التقديرات تبدوا أقل بكثير من العدد الحقيقي للمنتمين لهذه الثورة، إذا ما علمنا أن عدد سكان الجزائر ككل قد قدره الفرنسيون بثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، يتركز أغلبهم في الجهة الشرقية من البلاد مقارنة بغربها[1].

كما أن النطاق الجغرافي الذي شملته هذه الثورة يبرز ذلك بوضوح فلا يعقل أن يستطيع مائتي ألف محارب فقط السيطرة على كل هذه المساحة، والواضح هنا أن الاستعمار الفرنسي تعمد التقليل من أعداد المنتمين لهذه الثورة أملا في التقليل من أهميتها كما كان يفعل ذلك دائما.

لكن وبالرغم من النتائج الكبيرة التي حققتها ثورة 1871م إلا أن نهايتها كانت سريعة، (حوالي ثمانية شهور) نظرا للصعوبات التي واجهتها، وقد يكون من أبرزها أن القيادة لم تكن في يد شخص واحد[2]، فبعد استشهاد محمد المقراني إثر مقتله في معركة واد سفلات يوم 05 ماي 1871م[3]، خلفه أخوه بومرزاق الذي حقق نتائج ايجابية في هذه الثورة إلا أن علاقته مع الإخوان الرحمانيين ونقصد بذلك محمد الحداد وأبنائه لم تكن جيدة، مما أثر سلبا على عملية التنسيق والأشراف، الأمر الذي جعل هذه الثورة ليس لها إستراتيجية واضحة، وهو ما جعلها تفشل في النهاية.

ومع ذلك تبقى هذه الثورة من أعنف الثورات التي اندلعت في الجزائر، فاستطاعت بذلك أن تجمع البعد الديني مع البعد الوطني مما أكسبها ثقة كبيرة في أوساط الشعب الذي التف حولها وساندها.

---

[1]–يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص68.

[2]–مقلاتي عبد الله: بومزراق المقراني وعلاقته بالإخوان الرحمانيين، أعمال ملتقى الشيخ الحداد والمقراني، المنعقد يومي 11-12 ديسمبر 2004، برج بوعريريج، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2006م، ص53.

[3]– يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص72.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، دار البصائر، الجزائر، (د.ط)، 2007.
2. بثينة سلطاني الحمراوي: البعد الإصلاحي في التراث الصوفي، مجلة الحياة الثقافية، منشورات وزارة الثقافة، تونس، العدد239، 2013.
3. بسام العسلي: محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية، دار النفائس، ط1، بيروت، 1401هـ-1981م.
4. جاك بيرك رسالة إلى الشيخ مصطفى قاسمي الحسني، شيخ زاوية الهامل، بتاريخ 17 سبتمبر 1965، من وثائق المكتبة القاسمية
5. حميد بن سالم: الثقافة الإسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال، مجلة اللسان العربي، العدد الأول، الرباط، 1964.
6. روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين: ترجمة نيكولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1963.
7. الصادق دهاش: الظروف التاريخية العامة المحيطة باندلاع ثورة المقراني 1871-1872م، أعمال ملتقى الشيخ الحداد والمقراني، المنعقد يومي 11-12 ديسمبر 2004، برج بوعريرج، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2006م.
8. عبد الحميد زوزو، ثورة بوعمامة (1881م، 1808م)، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، (د.ط)، 1981.
9. عبد الرحمان مصطفاوي: "دور الزوايا والطرق الصوفية في المقاومة الشعبية للاحتلال"، مجلة رسالة المسجد، السنة السادسة، العدد 08، (أوت 2008م)،ص68.
10. عبد الرحمان مصطفاوي، "دور الزوايا والطرق الصوفية في المقاومة الشعبية للاحتلال"، مجلة رسالة المسجد، السنة السادسة، العدد 08، (أوت 2008م).
11. عبد الكريم بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية1931-1945، عالم المعرفة، الجزائر، 2008.
12. عبد المنعم القاسمي الحسني، زاوية الهامل مسيرة قرن من العطاء والجهاد 1862-1962، ط2، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر،2013

13. عواطف قاسمي الحسني: نفحات هاملية، بين الرواية والحقيقة، وبين الحقيقة والوثيقة، دار الخليل القاسمي، 2014.
14. غرس الله عبد الحفيظ، الزاوية فضاء للتنشئة الاجتماعية مقاربة سوسيولوجية، مجلة المواقف، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، العدد الأول، ديسمبر 2007.
15. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.
16. محمد العربي حرز الله: منطقة الزاب مائة عام من المقاومة (1830-1930)، دار السبيل، (د.ط)، 2009.
17. محمد العربي ولد خليفة: الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم، دار الأمة، الجزائر، 2014.
18. محمد مجاود، دور الزوايا في الحركة الوطنية والثورة التحريرية، مجلة المواقف، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، عدد خاص، أفريل 2008.
19. مقلاتي عبد الله: بومزراق المقراني وعلاقته بالإخوان الرحمانيين، أعمال ملتقى الشيخ الحداد والمقراني، المنعقد يومي 11-12 ديسمبر 2004، برج بوعريريج، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2006م.
20. نجيب بن خيرة: أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2010.
21. يحي بوعزيز: دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871م، أعمال ملتقى الشيخ الحداد والمقراني، المنعقد يومي 11-12 ديسمبر 2004، برج بوعريريج، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2006م.
22. Augustin Berqu: easaid une bibliographie critique de la societé de Géographie et d'Archéologie de la province d'Oran, tom XXXIX.